مظاهر الادب المصري

طه حسين في نظر المستشرق جيب

لا يزال المستشرق جيب مواصلاً دروسه في تاريخ الآداب العربية المصرية ، ناشراً فصولها في مجلة معهد لندن الشرقي . وقد اخذنا عنه سابقاً كلامه في المتناولي « المشرق » (٣٧ [١٩٣٩] ٦٨٤) وها ان الحديث ، اليوم ، دائر على طه حسين (١٩٣٩ ، ٥٠٦) ف. ت.

وُلد طه حسين في قرية من قرى الارياف ، من اسرة حفيظة على التقاليد القديمة . فقد بصره وهو صغير ، فعُقدت العزائم على تخصيصه بالعلوم الدينية . تلقن الدروس الابتدائية في كتّاب القرية ، ثم دخل الازهر ، فقضى فيه سنوات تضلّع فيها من اللغة العربية ، واظهر ميله لآدابها تحت اشراف الشيخ سيد بن علي المرصفي ؛ وانجز من ثمّ دروسه في الجامعة المصرية المنشأة حديثاً ، على اساتذة اوربيين ، متدرباً على طرائق الانتقاد الادبي الغربي ، وعلى اساليب الدروس التاريخية العلمية . وسرعان ما طرح عنه النزعة الأزهرية ، ونهض مجابهاً المقاومات فكان كتابه في ابي العلاء المعرّي باكورة مؤلفاته ، ترك فيه العنان لجماح مُرّاته ، وتناول بالانتقاد طرائق تعليم الآداب العربية في مصر .

قضى ايام الحرب الكبرى تلميذاً في السوربون ، وصرف همه الى درس فنون الآداب الافرنسية ، والى النقد الادبي ، في امهات المؤلفات الافرنسية ، المعروفة « بالكلاسيك » او المدرسية . ثم خاطر بجملاته الانتقادية حتى كاد يذهب ضحيةً لها ، ومع ذلك لم تخفق مساعيه ، بل نال شهادة الدكتوراه على درسه في ابن خلدون . وعاد الى مصر فعهدت اليه الجامعة المصرية بتعليم التاريخ اليوناني والروماني في عصره الذهبي ، ثم نقلته الى منبر تعليم الادب الجاهلي ، ولا يزال فيه الى يومنا .

وما كان احوج الاستاذ الحديث العهد في التعليم الى شجاعته الفطرية ! فان

وقوفه في منبر التعليم جعله ومؤلفاته هدفاً لحملات الفئة المحافظة ، فسخط عليه المشايخ وكرهوه وامتعضوا من فتح ذلك الباب التعليمي ، وربما كان الاول من نوعه في الاسلام . وانّ من درس تاريخ القرون الوسطى لا يجهل فضل المدنية اليونانية على الاسلامية . على ان المسلمين لم يرضوا الاقرار بذلك الفضل ، وابى شرفهم الّا انكار اصل الفنّ الموروث عن اليونان ، على ما له من التأثير في تطوّر المدنية الاوربية . فلم يدرسوا من الفكر الغربي الّا مظاهره الحديثة ، كما بدت لهم بعد ان دبّت روح النهضة الغربية في مصر وسورية ودنت الاقلام الى الترجمة ، فالتقليد ، فالمطالعة . وكانوا كلما تعمقوا بدرس الفكر الاوربي زادوه انصافاً ، لكنهم في الحقيقة لم يكتشفوا اساساته ، حتى قام سليمان البستاني فكان اول من جهد في جذب العالم العربي الى الاستئناس باحدى امهات المؤلفات المدرسية ، فعرّب الالياذة .

وربما جاء مشروعه سابقاً لاوانه ، لان شعر الملاحم ، بالمعنى الافرنجي ، لم يستهو العرب اليه قط ، ولغتهم قاصرة عنه ، فالبيت الشعري العربي اضيق نطاقاً من ان يسع مادّة ملحمة كالالياذة . وممّا زاد المصاعب في وجه المعرّب ضرورة نقل الاسماء الاعجمية الى العربية وادماجها في العروض . فنالت الياذة البستاني منزلتها من طول باع معرّبها ، اكثر من ميزاتها الباطنية . وظلت مصر ، على جهادها في سبيل الديموقراطية والعلم الغربي ، جاهلةً لمصادرها ومحتقرةً اياها بعض الاحتقار .

فجاء طه حسين وكشف عن اسباب تلك الحالة المتناقضة . فلم يرضَ عليه تلامذته اولًا وعاندوه ، ولكنهم ما لبثوا ان انقادوا رويداً رويداً الى نصاحته وحماسته . فوقف الاستاذ مصرّحاً ان كرامة مصر ومصلحتها وعمرانها يضطرها الى العودة الى المدرسة ، والاخذ بالعمل من الاساس ، ووجّه الى العامّة سلسلة مؤلفات مناديةً فيها بواجب الانكباب على الدروس المدرسية المؤسّسة للعمران الحيّ . . .

وكانت مصر مهتمة بازمتها السياسية ، فصرفت همها عنه . على انه وجد سنداً قوياً في الفئة المتنوّرة من العامة ، وبين زملائه في الجامعة . وكان آنذاك

احمد لطفي بك السيد مدير الجامعة مشتغلاً في تعريب « علم الاخلاق لنيقوماخوس » ، وقد اظهره سنة ١٩٢٤ . على ان الازمة السياسية عاقت طه حسين عن نشر مبادئه . ونُقل من ثمَّ الى تدريس الآداب العربية ، فكف عن الدروس المدرسية لسوء حظها . لكن مساعيه لم تخفق تماماً ، والامل وطيد ان حماسته وشجاعته الفكرية لم تذهب في الناشئة سدى . . .

اتبع في تعليم الآداب العربية طريقة ديكارت الآخذة بالمؤلف الى الشكّ ، فالفحص ، فاليقين ، ووصل بها الى نتائج أدّت يوماً فيوماً الى استئصال شأفة الآراء القديمة .

وكان الدكتور هيكل يُعمل الروية والفطنة في تدريج الرأي العام المصري الى مستوى الثقافة الاوربية . فلم يقتفِ طه حسين آثار زميله ، ولم يزاحمه في سبيل التؤدة والتفطن ، بل هاجم الرأي العام المصري بطريقة الشكّ الفلسفي ، والرأي العام المصري غير مستعدّ لها . وسار يقطع المراحل من انكار الى انكار ، وعنوان هذا الاسلوب كتابه « حديث الاربعاء » ، ثم تبعه الكتاب « في الشعر الجاهلي » فأحدث ضجّة الجأت اولياء الامر الى منع الكتاب عن الناس ، واتهم طه حسين بالزندقة . وفي تلك المرة ايضاً نجا الاستاذ من الشرور التي كادت تجرّها عليه جرأته ، وكانت نتيجة الحادثة انها رفعت منزلته في القلوب والعيون وجعلته معبود الدارسين . فلم يكترث من ثمَّ للكارثة ، واظهر كتاباً آخر عنوانه « في الادب الجاهلي » لم يكن الّا طبعة مجددة للكتاب السابق مع بعض الزيادة والنقصان[1] .

وان تلك المؤلفات ، على صبغتها المدرسية ، قد اتت ذخيرةً للآداب العربية المصرية الحديثة ، ليس فقط بانشائها واسلوبها ولكن بعناية صاحبها بسدّ حاجة العامة الى امثالها .

يمتاز انشاؤه بصبغته الخطابية لانه لم يكتبه بيده ، بل القاه القاء ، ومن

---

(١) راجع في موضوع هذا الكتاب ، وتحليل الرد عليه ، ما كتبناه في المشرق (٢٧[١٩٢٩]٤٣٤)

مميزاته المراجعات . لكنها غير مملة لان انتخاب الالفاظ ، وعرض البراهين بلهجة سهلة مقبولة ، والأخذ بالموضوع عن اقتدار ومهارة ، أسبل على اقواله حلةً جذابة قلما ارتداها كتاب من الكتب المصرية . على ان تلك الدروس تنال قيمتها من وجوهها التثقيفية ، ولا بدّ ان تؤدي مقدّماتها الى تقوية الفكر المصري ، وتعزيز المبادئ المستندة اليها تلك المقدمات ، سواء صحّت نتائج طه حسين او لم تصحّ .

ولم يحصل طه حسين على مكانته الفائقة في عالم الادب العصري بفضل تلك المؤلفات فقط ، لانه خرج عن دائرة تلك الدروس وتفرّغ الى الشغل في آداب الصحافة ، وله فيها القدح المعلّى . وحسبنا ذكر تحليله الروايات الافرنسية العصرية التي نشرها في « الهلال » . وفي السنة ١٩٢٢ عرّب روح التربية لغوستاف لوبون . ونشر قصة حياته تحت عنوان « الايام » ، وهي جديرة بان يقال فيها انها آية من آيات الفنّ العربي الادبي لما فيها من عواطف عميقة ، واوصاف صادقة .

دير سيدة طاميش

لحضرة الفيلسوف انطونيوس شبلي اللبناني

٥

اضافات واستدراكات

ومما عثرنا عليه بين اوراق دير سيدة طاميش صورة الاذن الذي منحه رئيس عام رهبانية الدومنيكانيين لجميع اديار الرهبانية اللبنانية المارونية بان تحتفل بزياح الوردية المقدسة . وهذه صورته بالحرف :

انا توما ريبوللي سلّم اللاهوت الرئيس العام الحقير والخادم العام الى رهبنة الواعظين اي الدومنيكانيين .

فحتى نسعى على قدر استطاعتنا عبادة مريم البتول الكلية القداسة باسم الوردية المقدسة في هذه الوثيقة وفي ساطان وظيفتنا المعطى لنا اجازة لجميع ديورة رهبنة القديس مار انطونيوس

الموارنة اللبنانيين بان يزوروا في كل احد اول شهر الوردية المقدسة وبان يكتبوا اسامي المؤمنين في هذه الاخوية حتى يربحوا الغفرانات الممنوحة لهذه الاخوية في هذا الشرط بان يرسلوا اسامي الاخوية الى الدير الذي يكون اقرب حيث يبنوا هذه الاخوية باسم الاب والابن والروح القدس امين.

حرر في رومية العظمى في ديرنا باسم القديسة مريم سوبرز ميروز (*Sopra Minerve*) في خامس عشر من اذار المبارك سنة الف ومية واثنين وثلاثون مسيحية.

خط يده توما ريبولي معلّم الرهبنة

اليازجي عبد الاحد يعقوبي رفيق ويازجي الرئيس العام

واطلعنا ايضاً على انعام من قداسة البابا بيوس السادس جاد به على رهبانيتنا المارونية وهذا نصهُ بالحرف :

اعلام

في مقابلتي لقداسته انا المذيّل اسمي بذيله قد تنازل وانعم قداسة بيوس السادس مستجيباً توسلات الاب شربل مدبّ اب عام الرهبان الموارنة من رهبانية القديس انطونيوس الملقبة باللبنانية ومنح الى الابد جميع كنة الرهبنة المذكورة في الحال والاستقبال مذيعاً اختصاصياً واقنومياً غفراناً كاملاً فللرؤساء في اربعة ايام وللمرؤسين في ثلاثة ايام في كل سنة بحيث لا يقبلون لاجل هذا الاختصاص شيئاً زائداً عن حسنة القدّاس المتادة.

حرّر في رومية في اسطوانة مجمع انتشار الايمان المقدّس في ١٠ اذار سنة ١٧٨٧

اسطفان بورجيا

كاتب مجمع انتشار الايمان المقدس

ووجدنا ايضاً بين اوراق دير سيدة طاميش كلمة عن تكريس كنيسته بعد ترميمها وهي :

قد كرّس هذا الهيكل المبارك قدس السيد الجليل ماري يوسف المازن مطران دمشق برئاسة حضرة الاب اجناديوس زغرور في ١٧ من شهر آب سنة ١٨٣٩ مسيحية

ومن اوراق الدير حجة بيع هذا نصها :

سبب تحريره

هو اننا بنا الودة الذي لدير بكركي المعروفة بدير المحدي حقل المقلع جيرة شركة دير سيدة طاميش الى ترئيس الدير المذكور القس مبارك الرشماني بمبلغ قدره وبيانه مايتين قرش وقبضنا منه الثمن المبين دفعة واحدة ولم يبقى لنا عنده درهم الفرد بيعاً صحيحاً شرعياً خالص من الكره والفساد ونحن بصحة العقل والاجساد وضمناً له المثافة والمدافعة من ساير الاوجاه الشرعية وصار الموضع المذكور ملك من بعض الاملاك المختصة في الدير المذكور

ومن ثم هذا الميع خمس عشر حمل ورق وبيت ومختلف وبورة ويحط ميرة على الوضع المذكور ثلاث قروش ومها صار توازيع من الحاكم يحط على قدر ما يخصّه وحررنا له هذه الحجة لاجل البيان والحافظ (والحفظ) من النسيان وقطع منازعة كل انسان. تحريرًا في ١٢ نيسان سنة ١٧٩٦

صح وهذا الميع المذكور لاجل نفقة الملك الرحمة البطرك فيلبّوس الجميّل

صح وهذا الميع بثمنين الياس زعرور من قرنة شهوان

الحقير المطران	الحقير المطران	الحقير المطران	الحقير المطران	الحقير بولس
اغناطيوس الخازن	يوسف تيان	حنا الحلو	يوسف نجم	اسطفان
مطران جبيل والبترون				

الحقير المطران	الحقير المطران	الحقير المطران	الحقير المطران
بخايل فاضل	اسطفان الخازن	جرمانوس الخازن	بطرس مبارك

وبجانب اسم كل مطران ختمه

. . .

ومما وقفنا عليه من الآثار في الدير المذكور صورة للسيدة العذراء[1] مرسومة باليد طولها متران ونصف متر، وعرضها متر و٦٥ سنتمترًا. وفي اسفلها هذه الكتابة:

«وقفًا مؤبدًا على دير سيدة طاميش لرهبان طايفة الموارنة في جبل كسروان وكان ذلك في ايام رياسة الاب العام اغناطيوس بليبل مصنوعة من نفقة المسيحيين بسعي واعتناء القس استيفان فاضل في مدينة القسطنطينية في ١٥ اذار سنة ١٨١١».

ويوجد صورة اخرى رسم اليد تمثل الدينونة وجهنم والمطهر والسماء، وهي بحجم صورة السيدة المذكورة، قد اعتنى بها القس نسطير مدلج اللبناني سنة ١٧٨٢ م

---

١) هي غير الصورة التي وصفناها في «المشرق» (٢٧ [١٩٢٩] ٥٠٥) ونشرنا صورتها في مشرق هذه السنة ص١١٢) وقلنا في الصفحتين انها ترق الى سنة ١٦٠٢، والصواب ١٦٩٢، فاقتضى التنبيه.